عبد العزيز هلال

المدفع

توقفت الشاحنة بمحاذاة الرصيف ، امام البوابة تماما . وهبط رجالها الثلاثة والقوا نظرة فيما حولهم . قال السائق : « هيا ، لنسرع ، قبل ان يتجمع الاطفال » .

وصعد الى صندوق السيارة ، ودفع المدفع الى حافته فتلقاه الرجلان الآخران . وبعد دقيقة كان المدفع مستقرا في مدخل الحديقة ، وفوقه صندوق خشبي مستطيل . فرك السائق كفا بكف ، ثم مسحها بخلفية بنطلونه ، قائلا لرفيقيه :

« حسنا ، اتمنى لكما اقامة طيبة » .

فابتسم احدهما ؛ لم يقولا شيئا . وابتعد السائق : « والآن ، وداعا » .

كان بعض الاطفال قد تجمعوا على البوابة ، يرمقون سبطانة المدفع وعجلتيه بعيون مبهورة . وتساءل احدهم : « هل هذا مدفع ؟ »

فسارع آخر الى القول : « نعم ، انه مدفع » .

وشرع الرجلان يجران المدفع في الممر الرملي ببطء ، فزحف الاطفال خلفهما . اضاف طفل ثالث معلوماته : « انه مدفع العيد » .

فصحح الآخر بتبجح :

« انه مدفع رمضان . غدا سنصوم . وهذا الذي سيعطينا الاشارة . بم عندما يجب ان نصوم ، و بم عندما يجوز لنا الافطار » .

ردد الاطفال باعجاب : « بم بم بم » .

واذ انتهى الرجلان بالمدفع الى نقطة ملائمة من الحديقة ، توقفا وجففا العرق حول رقبتيهما ، وهما يتأملان نظام الحديقة بنظرات باهتة ، لم يظهر فيها اي تعاطف . كان عليهما ان يقيما ثلاثة وثلاثين يوما ، هنا ، مع هذا الشيء ، ليخدماه ويسهرا على سلامته .

وانزلا الصندوق الخشبي من فوق المدفع ، واخرجا من جوفه بعض الادوات ، وجعلا يركزان المدفع ويثبتان عجلتيه الى الارض ، بينما احاط بهما الاطفال وهم يراقبون المشهد ويضجون بالتعليقات ويختلفون في ذلك فيتشاحنون .

بعد ان فرغ خادما المدفع من عملهما ، جلسا يستريحان على العشب . كان احدهما متزوجا ووالدا يفكر باسرته . ليس معقولا ان تقيم معه هنا هنا . ولكنه يود ذلك . اما

الآخر فقد احس بالنعاس . انه مكان رطب ولا يصلح الا للنوم . قال :
« اذهب انت الى البيت لتتدبر الامر مع عيالك ، وتحضر لوازمك للاقامة هنا » .
« أتبقى انت ؟ »
فاستلقى على ظهره متمطيا : « وماذا اذاً ؟ »
وبعد ان ذهب الرجل المتزوج ، بدقيقة او نحوها ، غاص رفيقه في نوم كثيف .
قال طفل : « لقد نام » .
قال آخر : « اتمنى لو اكون مكانه » .
« أتحب ان تكون حقا ؟ »
« نعم ، احب . احب المدفع » .
« ياه ! انا اخاف لمسه . انه شيء مخيف » .
« انت جبان » .
« جبان ؟ انا ؟ »
« لانك تخاف من المدفع » .
« لا . ولكن امي تقول انه يقتل ، يميت » .
« انت ابن امك » .
« كل واحد هو ابن امه » .
« انا لست ابن امي » .
« كذاب . كل واحد يجب ان تكون له ام » .
« انت ابله ولا تفهم شيئا » .
« انا ؟ »
« يقول ابي ان الجبناء هم ابناء امهاتهم ، والشجعان هم ابناء آبائهم » .
« وما معنى هذا ؟ »
« قلت لك . انت ابله ولا تفهم شيئا ».
وتقدم نحو المدفع في خطوات حذرة كيلا يوقظ الرجل . صاح احد الاطفال :
« هيه ! انظروا ، سيضربه الرجل » .
فقفز الى الوراء مبتعدا .

كانت الشمس قد تدنت من الافق ، وامتدت ظلال الاشجار بعيدا. وامتلأت الحديقة بالنساء والاطفال . كان القادمون يتجمهرون حول المدفع لحظات ثم يتفرقون ، ليجلس بعضهم على المقاعد ويتلهى الآخرون بالاراجيح . كانوا خليطا متعدد الالوان من النساء

والاطفال . واغلب النساء يتشحن بسواد الملابس التقليدية القديمة ، محجبا اجسامهن السمينة الثقيلة . كن جميعا يقضمن الفستق والقضامة ويفصصن البزر في شهية ، وقد اثار المدفع في اذهانهن خواطر جمة وذكريات رمضان السالف ، وتعليقات على غلاء المعيشة الذي يعانينه في كل رمضان . ثم قالت واحدة من ثلاث يجلسن على مقعد قريب من البوابة : « لم يبقَ لرمضان سحره القديم » .

وتحسرت . كانت في الاربعين ، كتلة من الشحم واللحم تزن قنطارا . وحذت شريكتاها في المقعد حذوها ، في آن واحد ، وكانتا اصغر منها سنا واقل وزنا ، وكان وجهاهما مطليين بحمرة فاقعة اللون ، وعيونهما مكحلة بكحل فاحم . وقالت احداهما :

« كانت الحياة نفسها اجمل » .

« هذه الحال اليوم بسبب الكفر يا اختي » .

« صحيح . لقد تغير الناس ، وصار الالحاد موضة اليوم » .

« انظري الى هؤلاء القذرات ، انهن يرتدين خرقا لا ثيابا . كل شيء بائن . كل شيء » .

وعندما رجع خادم المدفع الآخر من بيته ، وضع امتعته جانبا وايقظ رفيقه : « هيا دعنا نهيء المدفع » .

وانصرف الى اعداد البارود والحشوة . وتمطى زميله ، وتثاءب ، ثم نهض الى صنبور الماء فرشق وجهه وبلل عنقه وشرب ، فاحس بانتعاش . ووقف يحملق فيما حوله بدهشة : هناك كثير من النساء . وعندئذ احس بشيء يشبه الذعر ، فاقبل على صاحبه :

« أتلاحظ اننا الرجلان الوحيدان هاهنا ؟ »

« طبعا . انها حديقة خاصة بالنساء والاطفال » .

« حقا ؟ لماذا ؟ »

« لقد رأت البلدية انه من الصواب تخصيص الحديقة على هذا النحو ، لتتيح للنساء المحافظات متعة الجلوس في الحدائق » .

« انها فكرة حسنة . أليست كذلك ؟ »

« نعم . ربما . ولكنني افضل لزوجتي ان ترتاد اية حديقة الا هذه » .

« لماذا ؟ »

« قد تدرك السبب خلال اقامتك يوما او اثنين » .

كان بعض الفتيان من عابري الطريق يقفون على الارصفة ، حول الحديقة ، متطلعين الى الداخل ، من خلال شبك السور المعدني ، يتحدثون وهم يتشوفون بعيون نهمة الى

الداخل. ومر قسيسان فتوقفا ينظران الى المدفع وخادميه المنهمكين في عملية الحشو. لم يتكلما. كانا هما ايضا يعرفان ان رمضان يمكن ان يبدأ غدا. ثم تابعا سيرهما الوئيد في وقار جميل. وفي المكان نفسه تلكأ فتى وسيم، انيق، يرتدي بنطلونا ضيقا من الصوف الاسود وقميصا من الحرير الازرق الفاتح، ينفتح عن صدر تتدلى عليه قطعة فضية معلقة بسلسلة حول رقبته. كان غلاما نظيفا مثل اميرة صغيرة. توقف هناك وراح يرقب ما يجري في الداخل. ولكن المدفع لم يثر اهتمامه بقدر ما اثاره مشهد صبيتين تقتربان من السور حيث يقف. كانتا في بداية البلوغ وكانت احداهما سمينة ولا تكف عن الضحك. سألهما: «أذاك مدفع؟»

فضحكت السمينة، واشاحتا بوجهيهما جانبا في دلع، وقد تلاصق رأساهما. واحس الفتى برعدة في قلبه، انتشرت في كيانه كله في الحال، وجعلت ساقيه رخوتين. وبعد ان تخلص من ذلك استطاع ان يقول: «انه مدفع جيد».

وتكرر الشيء نفسه في الطرفين. وقال ايضا: «التجربة ستثبت انه رائع. ما رأيكما؟»

وفي هذه المرة ضحكتا معا، وتدافعتا فتعثرت السمينة وسقطت على ظهرها، فرأى الفتى سروالها الابيض الصغير، من خارج السور الحديدي، قبل ان تنفتل الفتاة على جنبها وتتمكن من النهوض، منطلقة خلف صاحبتها التي كانت قد ابتعدت الى الداخل، وظلت عينا الفتى تلاحقانها جاحظتين.

امسى المدفع جاهزا. وبعد ذلك جلس الرجلان فوق مرجة قريبة منه، متكئين على شجرة واحدة، يدخنان في صمت، بانتظار اشارة اثبات شهر الصيام. لقد غابت الشمس، وثمة مراقبون، الآن، في كل مكان من العالم يرصدون الهلال. كان الرجل المتزوج ينظر الى الاشياء، وحتى النساء، امامه في حياد؛ كان بعيدا عن هذا المكان، كان في بيته، حيث زوجته الغبية التي لا تستطيع تدبير الامور منفردة، واولاده الاربعة الذين يحبون الارصفة والغبار اكثر من حبهم البيت. انه يحتاج اليهم، انهم يحتاجون اليه في رمضان، في كل امسية من رمضان، عندما يدوي المدفع، اكثر مما يحتاجهم ويحتاجونه في اي شهر آخر. بيد ان الرجل العازب كان هنا، حاضرا تماما، بكل مشاعره وغرائزه. كان يحلم بفراش يتسع لاربع يختارهن من هذا الحشد الذي يستعرضه. سمراء وشقراء وسمينة ونحيفة. وهو يفضل المحجبات: انهن اقل اتعابا وانظف جلدا. واخيرا قال العازب:

«الاقامة هنا جميلة، ولكنها مرهقة».

ثم تساءل: «هل تظن انهم سيرون الهلال؟ اعني اليوم؟»

«علمي هو علمك».

وبعد هنيهة ، قال : « انهم دائما يرونه من حماة » .
« ليس دائما . في السنة الماضية جاءتنا الاشارة من مكة » .

وتشجع ، في هذه الغفلة ، ذلك الطفل الذي يحب المدفع ، على الاقتراب منه . كان يقف لصقه الآن ، وبعد لأي . كان لا يريد الا لمسه . وبعد ان لمسه لم يتراجع . بل ظل واقفا ينظر اليه في نشوة . لقد لمسه ! حسنا ، لمسه ولم يحدث شيء . كم يود لو يطلقه ! سوف يعجب الناس به . سوف يشيرون اليه اينما ذهب ، ويقولون : « هذا هو ! لقد اطلق المدفع » .

وكانت الفتيلة بارزة امام عينيه ، بيضاء صغيرة . وخلف المدفع ، على الصندوق الخشبي رأى علبة كبريت . لم يبقَ مبرر لاي تردد بعد .

كان وجه المراهقة السمينة محمرا من العافية والضحك . وكانت الآن ترمق الفتى المفتون بعينين نديتين بالدموع ولا تكفان عن الضحك هما ايضا . وبعد ان ابتعدت ورفيقتها عن السور مرة اخرى ، اندفع الفتى راكضا يريد الوصول الى مكان اقرب الى مكانها ، ليفاجئها ، فاصطدم بفتى آخر من نمطه تماما ، فدفعه عنه صائحا : « هيه ، كن واعيا أانت اعمى ! »

« اخرس والا حطمت فمك » .

واشتبكا يتعاركان بضراوة ، وكان كل منهما يلكم الآخر على وجهه فيدميه . ولكن انفجارا هائلا دوى فجأة فنسي كل منهما الآخر ، وتعالى صياح الاطفال ، داخل الحديقة : « هيه . اثبتوه . اثبتوه » .

وبعد ان افاق الرجلان من ذهولهما هبا الى المدفع ، ولكن الطفل كان قد هرب قبل ان يتحركا ، وتابع ركضه الى البيت حتى بعد ان خرج من الحديقة . وكان صياح الاطفال ما ينفك يضج في فرحة عارمة : « اثبتوه . اثبتوه » .

وهتفت امرأة وحيدة على مقعد : « يا الهي ، اذاً سنصوم غدا؟ ما كنت اتوقع هذا » .

وضحكت الفتاة السمينة وهي تدفع رفيقتها التي شرعت هي الاخرى في الضحك :

« لن نستطيع الحضور هنا غدا . سنكون دائما في البيت بانتظار الافطار » .

وكان الرجل المتزوج يضرب كفا بكف وهو يقول :

« يا للولد اللعين . خرب بيتنا . ما عسانا نقول لهم ؟ »

ونظر الفتى الى خصمه في غيظ ، ثم لوى رأسه ، وبصق دمه على الرصيف ، وهو يتعجب مغمغما : « اللعنة ! لماذا تقاتلنا ؟ »